الصين والمسألة الصينية

نظرٌ تاريخيّ للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع لما سبق ص ٧٤٣)

٣ خلاصة تاريخ المملكة الصينية

قد روى مؤرّخو الصينيين عن اصول بلادهم ومبادئ دولهم اموراً غريبة لا يقبلها عقل سليم وينبذها اليوم علماء الصين لما يرون فيها من الخرافات الصبيانيّة بل الاكاذيب الواضحة على انّها لا تخلو من بعض الاخبار الصادقة المؤيّدة للرواية الموسويّة كذكر الخليقة والعشرة الآباء الاوّلين وطول اعمار البشر في القرون الاولى والطوفان العامّ وغير ذلك ممّا يدلّ على وحدة الجنس البشري واستنادهم الى حقائق الوحي في بدء الخليقة كما دوّنهُ كليم الله في سفر التوراة

واذا تخطّينا هذه الازمنة المجهولة وجدنا نحو ٣٠٠٠ سنة قبل المسيح ملكين يعتدُّهما اهل الصين في مقدّمة ائمتهم الكبار وارباب تمدنهم الاوّل وهما « فوهي » و « شين نونغ » واشهرهما فوهي سنّ الشرائع للصينيين وجعل لهم تاريخاً مركّباً من دَوْر ستين سنة - وممّا يُنسَب اليه تحصين المدن واكتشاف الاسلحة الخشبية والكتابة الصينيّة وهو واضع فنّ الموسيقى . ويعزون الى شين نونغ فلاحة الارض وارشاد الناس الى زرعها - وهو على زعم الصينيين اوّل من تعاطى التجارة والطبّ وعلّمهما قومهُ

وتاريخ الصين الصحيح الذي لا شبهة فيه يبتدئ سنة ٢٦٩٨ قبل المسيح كما بيّن ذلك الاب اميو (Amiot) اليسوعي في كتاب ذي فوائد جليلة ألّفهُ سنة ١٧٦٩ وضمّنهُ اوثق اخبار دول الصين فصار حجّةً عند كلّ العلماء . وكان ملك الصين وقتئذٍ « هوانغ تي » تولّى على بلاد الصين ومصّر امصارها ومهّد طرقها وضبط حساب تاريخها وبناهُ على مدار السنة الشمسيّة ثمّ فتح المدارس لتهذيب الاحداث . واقام « للاله العظيم » هيكلاً اخذ الصينيّون مذ ذاك العهد القديم يقرّبون فيه القرابين والذبائح وامرأتهُ « لوي تسو » علّمت الصينيين صناعة الحرير وتربية دود القزّ وبقي سرّ هذه الصناعة مصوناً في الصين الى اوائل النصرانيّة . وكان ملك « هوانغ تي » مئة سنة مدّ فيها تخوم مملكته الى البحر شرقاً والى نهر كيانغ جنوباً والى بلاد التتر شمالاً

وخلف هوانغ تي تسمة ملوك اختارهم الصينيُّون من بين امرائهم (٢٦٧٩ الى ٢٢٠٥) اشتهر منهم « شاوهاو » بن هوانغ تي اصلح انهار الصين فصارت السُّفن التجاريَّة تسير في كل انحاء البلاد والبس اصحاب الرتب والعلماء ثياباً رسميَّة عليها شعار الملك كما تراها اليوم. واشتهر بعدهُ ابن عمه « تشوهيو » قيل انهُ اعاد الدين الى رونقه الاوَّل واشتغل بتمدين المعادن وجعل بدء السنة الصينية في اوَّل هلال الربيع ولهُ فتوحات عظيمة. ومن هذه الدولة « ياو » ملكها السادس صاحب كتاب « كِنغ » اوَّل كتب الصينيين الدينيَّة ألفهُ نحو سنة ٢٣٥٠ قبل المسيح. وهذا التأليف قد نقلهُ الاب غوبيل (Gaubil) اليسوعي الشهير الى الفرنسويَّة فطُبع بعد وفاتهِ سنة ١٧٧٠ مع الاصل الصينيّ في باريس

ثم صار الملك في بلاد الصين وراثةً بعد ان كان اختياريًّا واسم الدولة الاولى التي ضبطت زمام الامر المطلق دولة « هيا » أنشأها الملك « يو » سنة ٢٢٠٥. ولهذا الملك كتابة تُعَدُّ من اقدم كتابات العصور حفرها على احد صخور جبل « هنغ خان » وقد نقلها الاب أميو اليسوعي واشهرها بين العلماء الاوربيين ومنها يؤخذ انَّ الملك « يو » قدَّم ذبيحةً لله فوق هذا الجبل شكرًا لهُ عزَّ وجلَّ على زوال المياه التي طمت في بلاد الصين واخربت قسماً كبيرًا من عمائرها

وقامت بعد السلالة الاولى « هيا » دولتان كبيرتان دولة « تشنغ » و « تشيو » فملكت الاولى من سنة ١٧٦٦ الى ١١٢٢ ق.م وملوكها ٣٠ ملكًا. اوَّلهم تشنغ تانغ واخر ملوك الدولة الأُولى وتولَّى الامر مكانهُ. ثمَّ اتَّسعت الدولة الصينيَّة في أيَّام خلفائه حتى بلغت تخومها الى آسية الوسطى. لكنَّ الفساد انتشر في اواخر هذه الدولة. وعظم الخطب بظلم ملكها حتى قام « ثو ثانغ » من امراء المملكة فاستبدَّ بالامر وانشأ الدولة الثالثة المعروفة بدولة « تشيو » وهي من اعظم دول الصين واطولها ملكًا وازهرها بالآداب والفنون ضبطت عنان السلطة ٨٧٤ سنةً (١١٢٢ = ٢٤٦ ق م). في عهدها كُتب سفر « تيولي » الذي يعتدُّ الصينيُّون كقانون سياسة ملوكهم. وفي عهدها ايضًا ظهر « كنغ فو تسو » المعروف ايضًا باسم كنفوشيوس امام فلاسفة الصين (٥٥١ — ٤٨٣ ق.م) ومنقح كتبها الدينيَّة وواضع دستور نظامها وآدابها. ولهُ كتب عديدة فلسفيَّة وسياسية وادبيَّة عُنيَ بنشرها وترجمتها الى اللغات الاوربيَّة اليسوعيون في القرن

السابع عشر والثامن عشر. وقسم كبير من الصينيين يجرون الى يومنا هذا على موجب رسوم كُنفوشيوس لا يحيدون عنها ذرّة

وكان لكنفوشيوس المذكور معاصر يتعاطى الفلسفة مثلهُ يُدعى « لاو تسو » سافر الى الهند ودرس دينها ثمَّ ألّف كتاباً يدعى « تاو تكين » فتتلمذ لهُ جمٌ غفير من اهل الصين وتبعوا مبادئهُ يُعرفون الى يومنا بالتاويين

ومن مآثر دولة « تشين » وهي دولتهم الرابعة بناء السور العظيم الذي مرَّ ذكرهُ بناهُ « تشين » منشئ هذه الدولة فسخَّر بشغلهِ ٥٠٠٠٠٠ فاعل وجعلهُ حاجزاً بين مملكتهِ وبلاد التتار خوفاً من غزواتهم اما بقيّة جهات مملكتهِ فكان وطّد فيها سلطتهُ بحيث لم يتجاسر احد مناواتها

ثمَّ خلفتها دولة « هان » وهي الخامسة من دولهم (١٩٧ ق م الى ٢٢٠ ب.م). وكانت هذه الدولة ذات سطوة وبأس وفي عهدها بلغ خبر الصينيين الى الرومان وجرى بينهم علاقات ودّيّة

ثمَّ اصاب الصين بعد هذه الدولة حروب وبلايا ادّت الى انقسام البلاد الى قسمين شمالي فجنوبي استولى عليها دول مختلفة الى ان قامت الدولة الثانية عشرة دولة « سُوي » فجمع ملكها الاول « ڤان تي » كلمة الصينيين بعد تفرّقهم ووسّع نطاق العلوم والآداب واكرم العلماء الّا انَّ اولادهُ اساؤُوا التدبير بعدهُ فصار الامر الى دولة اخرى تُدعى دولة « تانغ » (٦٢٨—٩٠٩) نالت من الفخر ما لم تنلهُ دولة اخرى قبلها. فجنَّد ملوكها الجنود وفتحوا الفتوحات الكبرى ودوَّخوا البلاد المجاورة لهم كشبه جزيرة كورية واليابان والتركستان وبلاد المغول ومنشورية وتونكين وكمبوج والهند الصينيّة وسيام وجزيرتي وفورموزة. ومذ ذاك الحين دُعيت الصين « مملكة الوسط » لوقوعها بين هذه الممالك كالقمر في وسط هالتهِ. فبلغت الصين قصوى العزّ والتمدُّن

الّا ان التتار والمغول بعد زوال هذه الدولة حملوا على الصين حملات متوالية لما رأوهُ من الفتن والاضطرابات في انحاء تلك المملكة ولم يزالوا في محاربتها حتى استولوا عليها في اواسط القرن الثالث عشر وكان في مقدّمتهم قوبلاي خان حفيد جنكز خان فزحف على الصين برجلهِ وخيلهِ وقهر ملوكها وانشأ الدولة العشرين وهي دولة « يوان » المغوليّة سنة ١٢٥٠. وهو باني مدينة بكين عاصمة الصين ولم يتم بعد هذه الدولة الّا

دولتان وهما دولة « منغ » (١٣٦٨—١٦٤٤) ثم الدولة الحالية « تاي تشنغ » وكلاهما تتاريّة الاصل كالدولة السابقة . وقد اشتهر بين ملوك دولة تاي تشنغ الملك « كانغ هي » فاحرز لهُ مجدًا باذخًا باعمالهِ الجليلة وملك ستين سنة . وتولى الامر بعدهُ سبعة ملوك الى يومنا وهم ينغ تشين (١٧٢٢—١٧٣٥) كيان لنغ (١٧٩٦) كيا كنغ (١٨٢٠) تاو كوانغ (١٨٥٠) هيان فونغ (١٨٦٢) يونغ تشي (١٨٧٥) كوانغ سو وهو السلطان الحالي تبنَّتهُ سنة ١٨٧٥ سلطانة الصين « تشي » وهو ابن « تشن » اخي زوجها وعمرهُ اليوم ثلاثون سنة . لكنَّ السلطانة بعد بلوغهِ سنَّ الرشد لم تزل تطالب لنفسها ادارة شؤون المملكة وضبط مقاليد الامر الى ان وقع بينها وبين ربيبها ما وقع من الخلاف وهو يريد تنقيح قواعد السياسة الصينيَّة بينما السلطانة لم تُرد هذه الاصلاحات خوفًا من نفوذ الاجانب واختارت لها (١٨٩٨) بدلًا من ربيبها اميرًا يُدعى « هكفاي » تبنَّتهُ فحصل من هذا الاختلاف حزبان متضادَّان فانتشر الفساد وتفاقم الصدع ونشرت الشيع السرِّيَّة لاسيما البوكسر (اي شيعة المتلاكمين) لواء الفتن تعضدهم خفيةً السلطانة « تشي » على مقاتلة الاجانب حتى اضطرَّت الدول الى ردّ كيدهم واتفقت على احتلال بلادهم وغايتهم ان يوطّدوا فيها اركان السلم ويدافعوا عن اهل جلدتهم ويتلافوا ما اصابهم من الضرر

٤ اديان الصين وتاريخ النصرانية فيها

الدين الغالب على سكّان الصين هو الشرك وعبادة الاصنام . الّا انَّ لهذه الديانة ثلاث شيع مختلفة اعني شيعة كنفوشيوس وشيعة التاريّة وشيعة البوديّة وليس بين هذه الاديان مناقضة بحيث يمكن الصيني ان يكون في وقت واحد منتظمًا في سلكها جميعها معدودًا منها كلها وسلطان الصين امام هذه الاديان الثلاثة يتمم فرائضها بكل تدقيق

وما يفوزها عن بعضها انَّ اشياع كنفوشيوس يبالغون في تعظيم الموتى ويقدّمون لاجدادهم التقادم ومراسيم التعبد . ويؤدون للطبيعة اكرامًا خصوصيًّا ولا يبالون بالوحي وتعاليمهِ السامية وقد ادخل اتباع هذه الشيعة في ديانتهم كثيرًا من خرافات الصابئة وتكريم الكواكب والسيَّارات . وهم يعظّمون كنفوشيوس بمثابة إله وقد اقاموا لهُ معابد يتعبدون لهُ فيها . وهذه الشيعة هي المتغلّبة على اماثل القوم والادباء في الصين

والشيعة الثانية اي التاوية هي شيعة الفيلسوف « لاوتسو » معاصر كنفوشيوس كما مرَّ. واصحابها يدَّعون حرِّية الافكار. يقولون بوجود إلهٍ ازلي كامل الصفات ويزعمون انَّ الكائنات مظاهر اللاهوت والانسان بتقمُّصٍ متتابع يتطهَّر ويدخل في الذات العلويَّة فيصير قسماً منها. الَّا انَّ الفيلسوف اذا هذَّ في تأمُّل العلويَّات يمكنهُ منذ هذه الحياة ان ينال هذا الشرف العظيم ويحصل على التألُّه. ولهذه الشيعة اعمال تحرِّية عديدة يقوم بها جمٌّ غفير من كهنتهم وهم يتاجرون بالطلاسم والاحراز التي يصطنعونها ويبيعونها للبسطاء.

امَّا البوذيَّة او ديانة « فو » وهي الشيعة الثالثة فاصلها من الهند ترتقي الى « ساكيا موني » وهو بوذا احد فلاسفة الهند ثمَّ تجاوزت الى بلاد الصين في اوائل تاريخ الميلاد وانتشرت ايَّ انتشار. لاصحابها من الاصنام عدد لا يحصى وهم يدَّعون انَّ الاله تجسَّد مراراً وان الطبيعة في تحوُّل دائم ترتقي من حالة الى أخرى حتى تستحيل يوماً الى الكل العظيم وما هذا الكلّ سوى الله الذي هو مجموع الكائنات ولا فرق بينهُ وبين الطبيعة الاَّ في بعض الاعراض وهذه الاعراض تتوارى بالتنقل والاستحالة.

فهذه الشيع الثلاث هي اليوم منتشرة بين الصينيين وقد حطَّت برتبتهم وبلغت بهم الى فساد الآداب وسوء الاخلاق حتى لم يعد من كان سليم الذوق يعتبرها ولذلك ترى عقلاء الصينيين ينبذونها ولا يصدِّقون تعاليمها

ويوجد في الصين ما خلا هذه الاديان ٢٠٠٠٠٠٠ من المسلمين وفئة قليلة من اليهود وكان دخول الاولين في القرن التاسع ثم كثر عددهم في القرن الثالث عشر. امَّا اليهود فعهدهم قديم في الصين قيل انهم دخلوا تلك البلاد قبل تاريخ المسيح

ولمَّا ظهرت الديانة النصرانيَّة صادفت في الصين واهواء ملوكها مقاومةً عظيمة منعتها من الانتشار الواجب. على ان دُعاة النصرانية لم يزالوا يخاطرون بنفوسهم لدفع هذه الموانع منذ بدء النصرانيَّة

وفي التقاليد الشرقيَّة ان القديس توما احد الرُسل الاثني عشر بشَّر الصينيين بايمان المسيح بعد ان اذاع تعاليمهُ الخلاصيَّة في اصقاع الهند. وفي تواريخ الصينيين وآثارهم ما يؤيد هذا التقليد. وقد جمع الاب آدم شال (Adam Schall) اليسوعي الشهير هذه التقاليد واحتجَّ بها على قدم النصرانية عند اهل الصين. وفي سنة ١٦٥٠ كتب على

وجه الكنيسة التي بناها في بكين مختصر عقيدة الايمان صدَّرها بهذه الكلمات « ان الدين النصراني انتشر اوَّلًا في مملكة الصين بواسطة الرسول القديس توما ». وللاب كرخر (Kirscher) اليسوعي المتفنن كتاب وسمهُ باسم (China illustrata) عدَّد فيه الشواهد عن رسالة القديس توما في الصين وقد صادق على قولهِ كثيرون من العلماء الكاثوليك والبروتستانت

وما لا يقع تحت ريب ان قدماء الكتَّاب الكنسيين ذكروا الصينيين (Seres) في جملة من اذعنوا الى تعليم الايمان. من جملتهم أورنوب من كتبة القرن الثالث (في كتابهِ الثاني الفصل الخامس). وكذلك شهد القديس يوحنَّا فم الذهب في ميمرهِ السادس على شرح رسالة القديس برلس الاولى الى اهل قورنتية) على « ان الشعوب التي ما وراء الهند عند الاوقيانوس تنصَّرت »

ولمَّا كان القرن السابع ارسل جاثليق النساطرة قوماً من اهل بدعتهِ الى الصين لينشروا هناك النصرانية فدخلوا تلك البلاد في ايام دولة « تانغ » المارّ ذكرها وكان ورودهم الى الصين برًّا من بلاد المغول. فبشَّروا بالايمان وشيَّدوا الكنائس وكان لهم مطران يسوسهم ويدبّرهم ولا يزال الى يومنا هذا مطارنة من النساطرة يُدعون بمطارنة الصين (راجع المشرق ٢ : ٤ - ١٠)

وقد وجد في مدينة « سي نغانفو » سنة ١٦٢٥ صفيحة كبيرة كان في اعلاها صورة صليب حسن النقش وتحتها كتابة مطوَّلة ذُكر فيها « انَّ سنة ٦٣٥ (للمسيح) ورد بلاد الصين كاهن سرياني يدعى اولبون وبشَّر بالدين المسيحي ونشر عقائدهُ المقدَّسة وبنى كنيسة وانَّ هذه الديانة شاعت بعد قليل وامتدَّت مع ما اصابها من الاضطهادات وانَّها لم تزل معظَّمة الى سنة ٧٨١ » (وهو عهد الكتابة المذكورة). وكان على جانبي الصفيحة كتابة بالخط الاسطرنجيلي تحتوي على اسماء رؤساء كهنة وكهنة وشمامسة ظنَّ بعض العلماء انَّها اسماء دعاة الدين النصراني. ورجَّح غيرهم ان هذه الحجارة أُقيمت فوق مدفن وانَّ الاسماء المرقومة تدلّ على الموتى المدفونين هنالك

وبقيت النصرانيَّة في الصين قرونًا عديدة تتقلَّب احوالها بين السرَّاء والضرَّاء. ومن الشواهد المثبتة بكثرة النصارى في الصين ما ورد في كتاب سلسلة التواريخ لسليمان التاجر في القرن التاسع قال (ص ١٦٣) يذكر حروبًا جرت في الصين سنة ٢٦٤ هـ

(٨٧٨ م) ان فيها « قُتل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس سوى من قُتل من اهل الصين مئة وعشرون الفاً »

ولمَّا دخل « مارقو باولو » الرحَّالة الشهير بلاد الصين في اواسط القرن الثالث عشر وجد فيها عدداً غفيراً من اشياع نسطور ذكر شيئاً من امرهم . والمرجح انهم اختلطوا في القرن الرابع عشر مع المسلمين واليهود فباد ذكرهم

لكنَّ الله كان ألهم في ذلك الزمان للاحبار الرومانيين ان يرسلوا فئة من الرهبان الفرنسيسيين والدومينيكيين الى تلك الممالك المتسكعة في ظلمة الشرك وكان ذلك بهمَّة البابوين الجليلين نيقولا الرابع واقليمس الخامس فدخلوا الممالك الصينيَّة وقدَّموا للوكها هدايا امام الاحبار ونالوا الرخصة بنشر الديانة الكاثوليكيَّة . فما لبثت تعاليمهم ان نالت جزاءها ورَدُوا كثيرين من الصينيين وطهَّروهم بمياه المعمودية . وبلغ من امرهم ان اقاموا لهم مطراناً في عاصمة الملك واساقفة عديدين في انحاء مختلفة . وقد اشتهر منهم حنَّا دي مونتي كورڤينو رئيس اساقفة بكين في اوائل القرن الرابع عشر

ثم ثارت في اواخر القرن الخامس عشر محن عديدة على المرسلين فنفاهم سلاطين الصين وقفلوا البلاد في وجههم . ودام ذلك الى اواخر القرن السادس عشر حيث مكَّن الله الرهبان اليسوعيين من الدخول الى المملكة الصينيَّة . وكان اوَّل من وطئ منهم ارضها الابوان ميخائيل روجار ومتَّى ريتشي (Ricci) في سنة ١٥٨١ وقد نالهما في سبيل غايتهما من الملمَّات ما يكلّ عن وصفه القلم لكنَّ النوائب لم تضعضعهما والشدائد لم تهدّ عزمهما

ثم ترك ريتشي رفيقهُ لنشر الدين بين الشعب وطلب الوسائل الى مواجهة الملك تشين سُنغ (١٥٧٣ — ١٦١٩) الى ان بلغ مرامهُ بعد اللتيَّا والتي . فما عرفهُ الملك ووقف على سعة علومهِ وذكاء عقلهِ حتى وكل اليهِ دار الفنون ورأسهُ على مرصد الفلك في بكين فرأى من علومهِ عجائب . ثمَّ أخذ كبار الدولة يقتربون منهُ فوجدوا فضيلتهُ اعظم من علمهِ واعاروهُ اذناً صاغية . فاثار منهم بنور الايمان ربوات بينهم كثيرٌ من اشراف الدولة وثلاثة امراء من اقارب الملك وكهنة اصنام . ولمَّا مات سنة ١٦١٠ صار لجنازتهِ بامر الملك حفلة لم يُعهد لها مثال . وقد ابتنى هذا الاب وحدهُ ثلاثين كنيسة

وتوارد اليسوعيون منذ ذاك الوقت الى « مملكة ابن السماء » وبشّروا بالايمان في كل اقطار الدولة لم يأخذهم في اعمالهم الجليلة سأمٌ ولم يصرفهم عن نيّاتهم الشريفة محنةٌ ولا نصب حتى انّ عدد المتنصّرين كان يبلغ مليوناً من النفوس سنة إلغاء الرهبانيّة اليسوعيّة ببراءة البابا اقليمس الرابع عشر (١٧٧٣). وقد اشتهر بين هؤلاء الرهبان نحو خمسين شخصاً لا يجهل اسماءهم من لهُ إلمام بامور الصين وأثنى عليهم كل من كان منصفاً خالياً من الاغراض حتى اعداء اليسوعيين. نخصُّ منهم بالذكر الاب آدم شالّ خلف الاب ريتّي في رتبته عند الملك والاب فرديننذ فربست (Verbiest) الذي اختصهُ « كانغ هي » بخدمته وعيّنهُ عمّ الملك وتيفًا وخمسين الفًا من اهل الصين. والاب پارنين (Parennin) واميو ومغالنس رغوبيل وتآليفهم العجيبة تشهد الى اليوم على مزيد فضلهم وقد طُبع منها جانب واكثرها لم يُنشر بالطبع لما يقتضي طبعها من النفقات الطائلة

ثم عاد اليسوعيّون ثانيةً الى الصين في هذا العصر واجتهدوا مع مرسلين آخرين من جميع الرهبانيّات في فلاحة كرم الربّ وقد كلّل الله مساعيهم باكليل النجاح. فانّ عدد من نصّرهم اليسوعيّون وحدهم منذ ٢٠ سنة يربي على مئتي الف نسمة. ومن اعمالهم الشريفة انشاء مطبعة صينيّة تامّة الادوات في شان غاي نشروا فيها كتباً عديدة علميّة ودينيّة. ولهم ايضاً مرصد فلكي يماثل اعظم مراصد العواصم الاوربيّة. وهم مع ذلك لا يطلبون جزاء آخر لاتعابهم غير مجد الله وهداية النفوس الى سراط الحقّ وقد قُتل منهم في الثورة الاخيرة اربعة مرسلين ذهبوا شهداء ايمانهم

٥ المسألة الصينية

بقي علينا ان نذكر هنا بوجيز الكلام ما ينهم السياسيّون بالمسألة الصينيّة التي تشغل الآن افكار الدول الاوربية فنقول:

ان مملكة الصين بقدم عهدها واتساع نحومها وترقي صنائعها وذكاء ارضها قد زهت بمعزل عن الدول الاجنبيّة فلم ير اهلها خيرًا خارجاً عن حدودها فأعمى العُجب ابصارهم وحسبوا كل من لم يحذُ حذوهم او يذعن لسننهم كهَمَج لا يستحقّ الاعتبار ولذلك قد تغلّب عليهم البغض لكل عنصر غير الصيني

على ان الاجانب منذ قرون قديمة لم يزالوا يطرقون باب الصين وكثيرًا ما تجاوزوا حدودها وتاجروا مع اهلها لاسيما اهل الهند واليابان والعرب. ولمّا فتح الاوربيون جزائر

البحر وبلغوا اقاصي الاوقيانوس بلغ بهم مسيرهم شواطئ الصين من جهة الغرب والشرق معاً. وكان اوّل من حاول متاجرة اهلها البورتغيين دخلوا جزيرة ماكاو سنة ١٥١٤. وتبادلوا مع الصينيين بمحصولات بلادهم. الّا ان هذه التجارة بقيت محصورة في مدينة كانتون

فلمّا كان القرن السابع عشر والثامن عشر زاحم الروس البورتغيين في نفوذهم. ثمّ نالت فرنسة بعض الامتيازات وأُبرمت في عصرنا معاهدات تجاريّة بين الصين والدول الاوربيّة وتكاثرت المواصلات الى ان انتشبت سنة ١٨٣٩ الحرب بين الصين وانكلترة بسبب متاجرة الافيون(١ فكانت الدولةُ على الصينيين. ومذ ذاك الحين فُتحت للتجارة الاوربيّة خمس مدن صينية وعُقدت عدّة معاهدات أُلجئ الصينيّون الى امضائها ولكنّهم ما لبثوا ان اختَرقوا حرمتها فنتج عن ذلك حروبٌ متوالية اشهرها حرب سنة ١٨٦٠ حين فتح الفرنسويّون والانكليز مدينة بكين وظهر للعيان ضعف تلك المملكة المعدودة سابقًا من اقوى الدول. ثم قام كثيرون من اصحاب الفتن وتعصّبوا على ذوي الامر واتّخذوا بغضهم للاجانب كوسيلة لبلوغ مآربهم الخاصّة فعجز الولاة عن تشتيت شملهم او تغاضوا في تقليم اظفارهم وكان الخصام في تلك الاثناء يتفاقم بين الملك واهل دولته

ولا شكّ ان مثل هذه المشاغب كانت تستدعي اتفاق الدول للمدافعة عن حقوقها المنتهكة والسعي في حماية رعاياها التي اصبحت على قاب قوسين من هلاكها. وغاية ما نتمنّاهُ نحن ان تعود مياه السلام الى مجاريها ويقوى الملك الشرعي « كوانغ سو » على ضبط زمام الامر ويحتّق رغمًا عن اخصامه نواياهُ الحسنة باصلاح شؤون الدولة. ولنا في رسالته التي وجّهها السنة الماضية الى ابينا الحبر الاعظم ضمينٌ عمّا ستنالهُ النصرانيّة في عهده من التقدّم والشرف. ولا بدعَ انّ انتشار الدين الحقّ في الصين لمن اقوى الوسائل لحفظ اركان السلطة وكبح الفساد ونشر لواء الفضيلة كما ظهر ذلك في الصينيين الذين اصطبغوا في هذه السنين الاخيرة بصبغة العماد فانهم كانوا اشدّ انصار الدولة الشرعية واخضعهم لاوامرها وابغضهم لاعدائها

---

١) ارادت الحكومة الصينية ان تمنع الانكليز من نقل الافيون الى بلادها لما ينجم عن شربه من المضرّة وجرت على سلع التاجرين فاشهرت انكلترة على الصين حربًا مشؤمة